

رأي في تحديد عصر الراغب الأصفهاني

للدكتور عمر عبدالرحمن الساريسي

تقديم

رَجَّحت، في العدد المزدوج ٣، ٤ من مجلة المجمع الموقر، نسبة كتاب «درة التنزيل وغرة التأويل» للراغب الأصفهاني، وقد عزاه بعض قدامى الباحثين والمعاصرين لغيره. واليوم أحاول، بحول الله، أن أقدم رأياً في خطأ أكبر، قام في أذهان كثير من الباحثين، حول تحديد وفاة الراغب الأصفهاني نفسه، فأزعم أن وفاته قد كانت، على الأرجح، قبل عام ٥٠٢هـ، الذي حدّده لها هؤلاء الباحثون، بقرنٍ كاملٍ من الزمان! وليس هذا الفرق في تحديد عصر أحد رجال التراث بيسير، بل إنه يزداد أهمية إذا أدركنا أن أغلب كُتّاب الطبقات والتراجم قد أداروا ظهورهم لهذا الكاتب فلا يكادون يتعرضون له، ومن لم يتجاهله من الباحثين المحدثين، وهم قلة، فقد عدّه من أهل القرن الخامس الهجري. وكلما مضى الباحث في القراءة في «محاضرات الأدباء» أو في «معجم مفردات القرآن» أو في «الذريعة إلى مكارم الشريعة» أو في غيرها من آثاره المطبوعة والمخطوطة؛ شعر بظلم جائر وحيف يتعرض لهما هذا الكاتب، فأغراه البون الشاسع ما بين الكائن والذي ينبغي أن يكون بالمزيد من الكشف والبحث في سبيل الوصول إلى الحقيقة أو ما يشبه الحقيقة مما يرضي الضمير ويوفي مطالب البحث العلمي الوثيق.

الإشكال الأول – تاريخ الوفاة:

حينما وافق مجلس كلية الآداب، بجامعة عين شمس، على أن يدور بحثي^(١) حول حياة أبي القاسم، الحسين بن مفضل بن محمد، المعروف بالراغب الأصفهاني وأثره في اللغة والأدب مع تحقيق إحدى مخطوطاته، مَضَيْتُ أُتْسَقَطُ أخباره، فذهبتُ إلى صاحب «كشف الظنون»^(٢) أَسْتَهْدِيهِ فِي التَّعَرُّفِ إِلَى مصنفاته بصيصاً من نور، قد تسعف في الوصول إليه كتب الأعلام والمؤلفين والمطبوعات^(٣)، فعددت من مصنفات الراغب ما لا يزيد على أصابع اليد الواحدة، وسكت عن الإشارة لعصر المصنف في بعضها، بينما ذكر، في بعض، أنه قد توفي في رأس المائة الخامسة. أما ما تذكره أكثر كتب المحدثين عن وفاة هذا الرجل فهو عام ٥٠٢هـ^(٤)، وبينهما فرق زمني لا يستهان به، إنه قد يكون قرناً برأسه. وهذا هو الإشكال الأول الذي يلتقيه الباحث في هذا البحث.

الإشكال الآخر - ندرة الترجمة:

استطلعتُ ياقوت في «معجم البلدان»^(٥) فلم أظفر منه بترجمة للراغب، وبحثتُ في «طبقات الأدباء»^(٦) فلم أعثر على شيء مما أريد، وكذلك كانت

(١) لنيل درجة الدكتوراه في الآداب من قسم اللغة العربية، وقد نوقش البحث بتاريخ ١٩٧٧/١١/١٧.

(٢) حاجي خليفة، إستانبول ١٩٤١.

(٣) مثل الأعلام للزركلي ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ومعجم سركيس.

(٤) راجع الأعلام ٢٧٩/٣ ط ١ ومعجم المؤلفين ٥٩/٤ ومعجم المطبوعات العربية ليوسف سركيس ٩٢٢ وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان ٢٦٩/١ (النسخة الألمانية) ودائرة المعارف الإسلامية ٤٠٧/١، ٤٧٣.

(٥) مطبعة دار المأمون بإشراف أحمد فريد رفاعي، ولا أدري كيف يذكر الخوانساري (في روضات الجنات ١٩٧/٣) أن صاحب معجم الأدباء قد ذكر الراغب.

(٦) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، أبو البركات الأنباري (٥٧٧) تحقيق د. إبراهيم السامرائي ١٩٥٩.

«طبقات الشافعية»^(٧). قَلَّبْتُ صفحات «تاريخ بغداد»^(٨) فبدا وكأن صاحبنا لم يزرها ولم يعرفها، ثم نظرتُ في «الوفيات»^(٩) وفي تتماتها^(١٠) فأعياني النظر، وفنشتُ في «يتيمة الدهر»^(١١) مسرعاً، وفيما أتمّها من «دمية قصر»^(١٢) و«وشاحها»^(١٣) وما تلاها من «خريدة قصر»^(١٤) فلم أعد عنه منها جميعاً بكلمة واحدة! ونَقَبْتُ في «سير أعلام النبلاء»^(١٥) فلم يتح لصاحبنا أن يكون واحداً منهم، وسألتُ عن آدابه في «شذرات الذهب»^(١٦) فوجدتُ أن صاحبها لم يعدّه منها.

إشارتان ونُقُول:

ولكن مصنفين فاضلين قد خالفا مَن قبلهما وعرضا له عرضاً وجيزاً، وكان لعرضهما، على وجازته، قيمة كبيرة لمن تلاهما من كُتّاب التراجم العامة والخاصة.

(٧) للإمام السبكي.

(٨) للخطيب البغدادي ٤٦٣ مكتبة الخانجي والمكتبة العربية ببغداد ١٩٣١ م.

(٩) وفيات الأعيان - ابن خلكان ٦٨١ هـ.

(١٠) الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي ٧٦٤، فوات الوفيات، ابن شاکر الكتبي ٧٦٤

وعقود الجمان على وفيات الأعيان وهو مخطوط رأيته في مكتبة الفاتح بجامعة

السليمانية بإستانبول رقم ٤٤٣٤ صنعة محمد بن عبدالله المراكشي.

(١١) أبو منصور الثعالبي ٤٢٩ هـ وهو سبب التفتيش السريع.

(١٢) البaxterي ٤٦٧ هـ.

(١٣) علي بن يزيد البيهقي ٥٦٥ هـ.

(١٤) العماد الكاتب الأصبهاني ٥٩٧ هـ.

(١٥) شمس الدين بن عثمان الذهبي ٧٤٨ هـ.

(١٦) ابن العماد الحنبلي ١٠٨٩ هـ.

أما أولهما فهو ظهير الدين البيهقي الذي عاش في القرن السادس (٤٩٩-٥٦٥) وترجم «لحكماء الإسلام»^(١٧) وجعل أبا القاسم الراغب واحداً منهم.

ولا يقلل من قيمته، في تقدمه، عدم تعرضه لتاريخ الوفاة، كما لا يقلل منها أن أحداً، بعده، لم ينقل عنها، في حدود علمنا، فربما كان ذلك السبب، كما يذكر بعض الباحثين، هو الموقف الذي كانت تقفه العامة والخاصة في بعض مراحل التاريخ الإسلامي من رجال الحكمة والفلسفة^(١٨).

وأما الآخر فهو جلال الدين السيوطي (٩١١)^(١٩) الذي نقل عنه المصنفون من ذوي الحرص والتثبت مثل حاجي خليفة في كشف الظنون. وعن هذا نقل سائر المصنفين ونقل أصحاب التاريخ الخاص وأعني بهم مؤرخي الشيعة من أمثال محمد باقر الخوانساري^(٢٠) ومحسن الأمين العاملي^(٢١) وعباس القمي^(٢٢) وآغا بزرك الطهراني^(٢٣).

وكانت نقول هؤلاء عن صاحب كشف الظنون ذات قيمة في دراسة الراغب تعلقوا على ما أخذوه من المراجع التي ذكروها عن سبقهم في التاريخ لطبقات

(١٧) تاريخ حكماء الإسلام، تحقيق ونشر الأستاذ محمد كرد علي، دمشق ١٩٤٦، ص ١١٢.

(١٨) الشيخ الأستاذ مصطفى عبدالرزاق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ٨٦.

(١٩) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، مكتبة الخانجي، ط ١، ٣٩٦.

(٢٠) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، طبع وتحقيق إيران ١٩٧/٣.

(٢١) أعيان الشيعة، مطبعة الإيتقان ١٩٤٨.

(٢٢) سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار ١٣٥٩، والكنى والألقاب، مطبعة العرفان، صيدا، ١٣٥٨ هـ.

(٢٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة، النجف الأشرف، ١٢٨/٢٠، ٢٨/١٠، ٣٥١/٤، ٩٥/٨.

الشيعة^(٢٤). وقد حاولت أن أطلع على هذه الطبقات فلم أستطع.

وكان أثر السيوطي في إبراز فضل الراغب، فوق ذلك، فيما نقله عن بدر الدين الزركشي^(٢٥) من حديث فخر الدين الرازي عن الراغب وأنه من أئمة السنة «وقرّنه بالغزالي». وقد أطرى الزركشي نفسه، أيضاً، أحد مصنفات الراغب^(٢٦)، كما أطره السيوطي في بعض مصنفاته^(٢٧).

وقد كانت إشارات هؤلاء جميعاً إلى الراغب شديدة الشح في الأخبار عن الأحوال الشخصية له من ولادة ونشأة وروابط اجتماعية وثقافية وعملية، فاقترصت على الإيماء إلى موقع مذهبه بين السنة والاعتزال والتشيع^(٢٨) وعلى مبلغ أخذه من العلوم العقلية أو النقلية^(٢٩)، أو على مدى قرّنه بالغزالي^(٣٠) أو إعجاب أبي حامد الغزالي ببعض كتبه^(٣١). أما وفاته فقد اضطربت فيها أقوالهم اضطراباً شديداً.

حتى إذا ما وصلنا إلى العصر الحديث رأينا أنّ نقول المحدثين عن السابقين لا تتعدى هذه الحدود، وهو أمر مألوف، وقد قيل: «وكيف اعتدال الفرع والأشجار

(٢٤) مثل كتاب أخبار البشر، ورياض العلماء وحياض الفضلاء للميرزا عبد الله، وأسرار الإمامة للشيخ حسن بن علي الطبرسي، ذكرها صاحب روضات الجنات وصاحب أعيان الشيعة غير أنني لم أستطع الاطلاع عليها في مكتبات بغداد (أثناء زيارتي لها في ١٦/١١/١٩٧٥، وهي غير متوفرة في دار الكتب المصرية).

(٢٥) البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الحلبي، ١/٢٩١.

(٢٦) المرجع السابق حيث ذكر كتاب الراغب «الذريعة إلى مكارم الشريعة».

(٢٧) الإتيان في علوم القرآن ١/٧٢ حيث عدّ الراغب من المفسرين غير المحدثين وأشار إليه في عدة مواضع.

(٢٨) السيوطي، بغية الوعاة، ٣٩٦، والخوانساري، روضات الجنات ٣/١٩٧.

(٢٩) البيهقي، تاريخ حكماء الإسلام ١١٢.

(٣٠) السيوطي، بغية الوعاة، ٣٩٦.

(٣١) حاجي خليفة، كشف الظنون، ١/٥٣٠.

مائل». ولا يغير من هذه الحقيقة تعدّد الناقلين، فقد ترجم للراغب ترجمة سريعة كل من بروكلمان^(٣٢) والموسوعة العربية الموسعة^(٣٣) ومعجم المطبوعات العربية^(٣٤) والقاموس الإسلامي^(٣٥) وجورجي زيدان^(٣٦) وفهرس المكتبة الخديوية التيمورية^(٣٧). أما دائرة المعارف الإسلامية^(٣٨) فقد نقلت عن بروكلمان نقلاً مباشراً.

ولم يكن حظ الراغب في كل هذه المراجع أكثر من سُطور، لم تزد عنها، إلا في فهرس المستشرق الألماني بروكلمان.

على أن باحثاً فذاً قد هدته بصيرته إلى إدراك فضل الراغب والتنبيه عليه لأول مرة في العصر الحديث، وهو الأستاذ محمد كرد علي مؤسس المجمع العلمي العربي بدمشق وأحد أمراء البيان في الأدب العربي الحديث، فقد أفرد له مقالة ضافية في مجلة مجمع دمشق^(٣٩) نشرها فيما بعد في كتابه «كنوز الأجداد»^(٤٠)، ونشرها في أحد أعداد مجلة المقتبس^(٤١) التي يشرف على تحريرها. ولا يقلل من فضله هذا أنه حقق كتاب «حكماء الإسلام» للبيهقي الذي ذكرنا أنه أول من أطرى الراغب من الأقدمين، فقد حققت مصنفات السيوطي والزرکشي ولم يزد محققوها عن الهوامش المختصرة.

(٣٢) المجلد الثالث المبسط، ص ٥٠٥، النسخة الألمانية.

(٣٣) دار القلم ومؤسسة فرانكلين، القاهرة ١٩٦٥، ص ٨٥٤.

(٣٤) يوسف سرکيس، مطبعة سرکيس بمصر ١٩٢٨، ص ٩٢١.

(٣٥) أحمد عطية الله، مكتبة النهضة العربية ١٩٦٦، ٤٧٢/٢.

(٣٦) تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال، ٤٤/٣.

(٣٧) ٢٥٤/٤، ٢١٦، ٢١٧.

(٣٨) المجلد التاسع ٤٠٧/١، ٤٧٢.

(٣٩) العدد ٢٢، شباط فبراير ١٩٤٧.

(٤٠) مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٥٠، ص ٢٦٩.

(٤١) ٢٦٨/٢، ٢٩٩.

أما مقالة الكاتب الشاعر محمد عبدالغني حسن حول كتاب «محاضرات الأدباء» المعروف للراغب فلم تعد أن تكون تلبية لنداء أستاذه كرد علي في الشام. وقد حاول، في هذه المقالة^(٤٢)، أن يتحدث عن هذا الكتاب ثم عقد مقارنة بينه وبين كتاب المستطرف للأبشي. أما ما عدا ذلك فلا أعرف أن أحداً قد تعرض لصاحب المحاضرات بأكثر من إشارة متعجلة^(٤٣)، في حدود ما نعلم.

البحث:

لم يكن بد، إذن، من البحث عن أخبار الرجل عن نفسه، بعد أن لم تسعف أحاديث الآخرين عنه. فلعلنا نقع منه على ما يدل على أحواله الخاصة، من موطن ومنشأ ومعاش وتنقف، ولعلنا نظفر منه على ما ينبئ بالعصر والمعاصرة.

لهذا فقد صح العزم على السفر، ثانية^(٤٤)، إلى إستانبول، للتقير في المخطوطات هناك، عن أخباره فيما خلف من رسائل ومصنفات. وقد تمت الزيارة في النصف الثاني من شهر حزيران عام ١٩٧٥م، فكان اطلاع على ما نسب إليه من مخطوطات في المكتبة السلিমانيّة كبرى مكتبات إستانبول وفي غيرها كمكتبة كوبرللي

(٤٢) في كتابه دراسات في الأدب والتاريخ.

(٤٣) مثل إشارة الشيخ مصطفى عبدالرازق في كتابه تمهيد لدراسة الفلسفة الإسلامية، ص ٨٦.

وإشارة الدكتور عمر فروخ في كتابه «تاريخ الأدب العربي» دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٢ (٢١٤/٣).

وإشارة الدكتور وديعة طه نجم في كتابها «الجاحظ والحاضرة العباسية»، بغداد ١٩٦٥، ص ٤٢.

وإشارة الشيخ محمد حسين آل كاشفي الغطاء في كتابه «أصل الشيعة وأصولها»، وحينما أورد الدكتور زكي مبارك نصاً من «محاضرات الأدباء» للراغب، في كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» لم يقل لنا شيئاً محدداً عن عصر الراغب.

(٤٤) فقد كانت الزيارة الأولى لإستانبول بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٦ للحصول على النسخة الأخرى من مخطوطة «مجمع البلاغة» للراغب، والتي عني الباحث بتحقيقها وتقديمها مع هذا البحث لنيل درجة الدكتوراه.

ومكتبة أحمد الثالث (طوب قبوسراي) ومكتبة راغب باشا ومكتبة بايزيد.

ألم يتحدث عن نفسه؟

وكان هذا السؤال الذي يرد أولاً في خاطر.
إنه لم يتحدث بضمير المتكلم إلا في مواطن قليلة إلى حد ملموس، فلننظر فيها وفيما وراءها:

في مخطوط «مجمع البلاغة» نقرأ النصوص التالية:

«ورأيت من الأدباء من يحمل ذلك على الإباحة (في شرح قولهم: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)»^(٤٥).

«وأنشدت بعض الناس ... فقال لي ...»^(٤٦).

«وللأدباء أشعار كثيرة في الهر اخترت صدرًا منها في عيون الأشعار»^(٤٧).

وفي تفسيره المخطوط^(٤٨) يقول: «وقد رأينا كتباً كثيرة صنفنا في الطعن على الإسلام قد نقلت وتدوولت».

وفي كتاب «الذريعة إلى مكارم الشريعة» يقول: «وكثير في زماننا من تحلى بعلم الكلام وترشّح فيه للجدال والخصام»^(٤٩).

هذا مبلغ ما يسمح به في حديثه عن نفسه: رأيت وأنشدت واخترت ورأينا

(٤٥) مخطوط مجمع البلاغة، ورقة ١٠٨.

(٤٦) المصدر السابق، ورقة ١٧١.

(٤٧) المصدر السابق.

(٤٨) مخطوط رقم ١٧١، مكتبة أياصوفيا بالسليمانية في إستانبول.

(٤٩) مجمع البلاغة الورقة ١٢٧.

وزماننا، وكل هذه العبارات لا تنبئ عن شيء خاص في تكوين صورة له، في أية مرحلة من مراحل عمره، ولا يخرج عن هذا الشح في الحديث عن النفس ما يقوله في العبارة الأخيرة عن علم الكلام وما يستتبعه من جدال وخصام.

ثم نبحث عن صدى من مثل هذه اللمحات العريضة عن بعض ملامح نفسه وأخلاقه فلا نجد إلا القليل النادر أيضاً.

من ذلك نص في «مجمع البلاغة»^(٥٠): قال:

وأنشدت بعض الناس، وقد لامني لمنعي إياه شيئاً سألني:

ألام وأعطي والبخل مجاور له مثل مالي لا يلام ولا يُعطي

فقال: نعم تلام ثم تلام، وأنشد:

فما كل بمعذور ببخل ولا كل على بخل يلام»

لعل هذا الموقف الذي أجابه به من كذّب عنه «ببعض الناس» يوحي أنّ الراغب كان ذا سمعة طيبة وشهرة واسعة لا تسمح له أن يتهم بالبخل كأبي فرد آخر غير مشهور من الناس.

وقد نلمح أثر هذه السمعة الاجتماعية والمنزلة العلمية المتميزة في تقديمه لبعض مصنفاته:

«سألت أيها الأخ الفاضل ... أن أعمل رسالة أبين فيها أنواع الاعتقادات التي يحكم بها على الإنسان بالإيمان والكفر ... وقد استخرت الله تعالى في ذلك

وعملت ما اقترحته»^(٥١).

وفي آخر: «كنا تذاكرنا، أطال الله بقاء الشيخ الفاضل وأدام تأييده، في لفظ الواحد والأحد وتحقيقهما، فسأل أن أثبت ذلك كتابة ففعلت إيجاباً له»^(٥٢).

مشاركة في الندوات والمجالس العلمية:

فمن هذين النصين يتبين أنّ الراغب كان يشارك الآخرين في مجالس العلم والادب، وهي ما قلنا أنه بمعنى محاضرات الأدباء ومجالسهم، بل إنه قد كان يسأل ليقدم رأيه في أمور دقيقة في العقائد كالإيمان والكفر وعناصر الإيمان وتحقيق لفظتي الواحد والأحد، ولا يسأل عنها إلا الراسخون في العلم. بل إنّ الراغب يورد لنا نصاً ثالثاً، في هذا الصدد، نلمح منه أنه كان من الذين يقولون بالرأي الفصل إذا ما اختلطت الآراء واختلفت، يقول: «بلغني ما جرى بحضرة الشيخ، أطال الله بقاءه، من ذكر مخالطة الناس ومجانبتهم أن الحاضرين عنده اختلفوا: بعض يمدح المجانبة وبعض يمدح المخالطة، ثم اختلفوا في الصداقة، فأحببت أن أجعل ذلك كتاباً أذكر فيه نكت ما قاله العلماء والحكماء وأجعله هدية إليه»^(٥٣).

وهذا دليل على تفاعل الراغب مع المجتمع وقضاياها والإنصات لما يدور في مجالس كبراء المناصب السياسية والاجتماعية والخوض فيما يخوض الناس

(٥١) مقدمة رسالة في الاعتقاد - مخطوط رقم ٣٨٢، بمكتبة سعيد علي باشا بالسليمانية بإستانبول.

(٥٢) مقدمة رسالة في ذكر الواحد والأحد - مخطوط رقم ٣٦٥٤ / ٢، بمكتبة أسعد أفندي، بالسليمانية بإستانبول.

(٥٣) مقدمة رسالة في مخالطة الناس - مخطوط رقم ٣٦٥٤ / ٣، بمكتبة أسعد أفندي، بالسليمانية بإستانبول.

فيه من أمور اجتماعية كالصداقة والأصدقاء، وهو يلتقي مع ما قاله أحد الناسخين على غلاق إحدى مخطوطاته^(٥٤) من أنه «كان حسن الخلق والخلق جداً، كان يستعبد الناس حسن محاورته لهم». غير أنه لم يذكر أحداً من العلماء على أنه تتلمذ عليه أو أخذ عنه، وهذا من أعجب الأمور، فتعمى علينا أسماء أساتذته وتلاميذه، فيما وصلت إليه أيدينا، حتى الآن من آثاره.

مسحة دينية:

أما المسحة الدينية التي نتخيل أنها تصبغ أفعاله وعلاقاته الاجتماعية فقد نلمحها فيما سنرى من دعوته المتكررة لتسخير الدنيا في سبيل الآخرة، ومن كثير من الأدعية ينثرها في تصانيفه في البدايات والخواتيم وفي الأثناء. من ذلك الدعاء الذي قد أجد فيه ممثلاً لسائر أدعيته:

«اللهم زهدنا في الدنيا ووسّعها علينا ولا تزوها عنها فترغبنا فيها ... اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك، أسألك خصب الرجل وصلاح الأهل والمعاونة على الدنيا بقناعة»^(٥٥).

أزمة في حياته:

وقد عثر الباحث على خبر خاص بأزمة عاناها الراغب وعلى الرغم من أنها لا تحل لنا شيئاً من التساؤلات التي نحن بحاجة إلى إجاباتها، حتى الآن، فإننا نعرضها.

إنه يقول في إحدى مخطوطاته^(٥٦): «فلم تزل تلك الدواعي (دواعي النظر

(٥٤) مخطوط الذريعة إلى مكارم الشريعة، رقم ٧٦٨، بمكتبة إبراهيم باشا، بالسليمانية.

(٥٥) مخطوط مجمع البلاغة، ورقة ١٤٨.

(٥٦) "درة التأويل في متشابه التنزيل"، مخطوط للراغب، رقم ٨٦٠، مكتبة أسعد أفندي (السليمانية) إستانبول.

في الآيات المتشابهة في القرآن) تزيد وتنمي منذ الصبا وثوبه القشيب إلى أن عوضت منه ربطة المشيب» وهذه عبارات قد تفيد، بعد قليل، في التعرف على عمره، طولاً وقصراً، ثم يقول: «فاتفت خلوة سطوت على وحشتها بالقرآن، ولولا أنسه لم يكن لي بها يدان ... وكانت هذه الخلوة خلوة عين لا خلوة قلب واضطرار لا عن اختيار بل لقهر وغلب في حالة توزع الرأي فيها مذاهب واقتسم اللهم لها مطالب»^(٥٦).

أية أزمة؟

إنّ هذه الأزمة قاهرة، كما يبدو من قوله ... «لم يكن لي بها يدان» ومن قوله ... «توزع الرأي فيها مذاهب» وهو صاحب الرأي السديد الذي يسعف به المتخصصين، كما مرّ بنا في مقدمة مخطوطته «في أدب مخالطة الناس». فما عسى هذه الأزمة أن تكون؟ وما طبيعتها؟ أهى فكرية تتصل بالتردد بين علماء الكلام وبين آراء أهل السنة والجماعة، كلاً فإنّ الراغب يتخذ في هذه الأمور خطأ واضحاً لا تردّد فيه، وهو الوقوف إلى جانب أهل السنة والجماعة^(٥٧)، ولو أنه يرى صلاح الأمة في الجمع بين الشرع والعقل^(٥٨). أم أن أزمته اجتماعية ذات اتصال بمصدر كسب الرزق وانقطاعه بسبب موت وزير أو خليفه؟ أم أنها ذات طابع سياسي تتصل بقهر وزير أو وال أو خلفهما بناء على مخالفة في الآراء الفكرية وفي مواقف الفرق الإسلامية؟ إنّ في كلمته ما يلح إلى هذا ويلح إلى ذلك. فهي «خلوة عين لا خلوة قلب» فلئن أغمضت عينه فإنّ قلبه لم ينقل، إنّه ظلّ على ما هو عليه، عامراً بما كان عامراً به من فكر ويقين. ثم إنّ فيها قهراً، لا محالة، أليس يقول: «لا عن اختيار بل لقهر وغلب» يبدو أن الرجل قد

(٥٧) مخطوط "رسالة في الاعتقاد" للراغب، رقم ٣٨٢، بالسليمانية، (سعد علي باشا)، (إستانبول) الورقة ٢.

(٥٨) تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين، طبع حلب، ص ٦٣.

غلب على أمره فخلاً إلى نفسه ولم يعصمه من الشطط في هذه الخلوة إلا قراءة القرآن، وفيما توزع رأيه مذاهب بين القبول والرفض. بين الانصياع والثورة. ثم ماذا بعد؟ إننا لا نستطيع أن نزيد شيئاً، فليس بين أيدينا من أخباره ما يساعدنا على الزيادة، حتى الآن، وإن كنا لم نزل نسعى في الظفر بالمزيد من أخباره.

سن الشيخوخة:

وفيما يتصل بطول ما عاش من عمر فإن النصوص القليلة من أخباره، في آثاره، قد تدلنا على أنه قد بلغ مرحلة الشيب والشيخوخة.

إنه يقول في أحد هذه النصوص: «فلم تزل تلك الدواعي - دواعي النظر في الآيات المتشابهة في القرآن - تزيد وتنمي منذ الصبا ووثبه القشيب إلى أن عوضت منه ربطة المشيب»^(٥٩) وربطة المشيب يعني بها ثوب السن المتقدم في الكبر حينما يتغطى الرأس بالغطاء الأبيض.

وفي ختام كتاب «الذريعة»^(٦٠) يقول: «فسهل يا رب المجاز ويسر لي بالجواز، فقد حان حصادي ولم يصلح فسادى»، وواضح ما يريده من أن يحين الحصاد في العمر دليلاً على التقدم في السن.

فإذا ما عرفنا أن كتاب الذريعة هذا لم يكن الأخير من كتبه في حياته أدركنا أنه قد أدرك، على الأرجح مرحلة الشيخوخة لا الشيب فحسب. ذلك أنه في مقدمة مفردات ألفاظ القرآن^(٦١) يقول: «كنتُ قد ذكرتُ في الرسالة المنبّهة على فوائد

(٥٩) «درة التأويل في منشابه التنزيل»، مخطوط للراغب، رقم ٨٦٠، مكتبة أسعد أفندي، السليمانية، إستانبول.

(٦٠) طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦١، القاهرة.

(٦١) طبعة المطبعة اليمنية بالقاهرة، ١٣٢٤هـ.

القرآن ... وأشرتُ في كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة ... وقد استخرتُ الله في إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن ... وأتبع هذا الكتاب، ويعني المفردات، بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد وما بينها من الفروق الغامضة ...».

وفي مقدمة كتاب الذريعة يقول^(٦٠): «كنت قد أشرتُ فيما أملتُهُ من كتاب تحقيق البيان في تأويل القرآن إلى الفرق بين أحكام الشريعة ومكارمها ... وقد استخرتُ الله تعالى الآن وعملت في ذلك كتاباً يكون ذريعة إلى مكارم الشريعة».

ترتيب آثاره:

ومن هاتين المقدمتين يبدو أنه قد صنف أولاً «الرسالة المنبهة على فوائد القرآن ثم تحقيق البيان في تأويل القرآن، ثم كتاب الذريعة في مكارم الشريعة ثم كتاب المفردات في ألفاظ القرآن ثم درة التأويل في متشابه التنزيل.

وهو يذكر بعض هذه المصنفات في مقدماته للبعض الآخر، كما رأينا، من النصوص السابقة، بيد أنه لا يذكر واحدة من هذه المصنفات الفكرية الدينية والأخلاقية في أي من مصنفيه الأدبيين - محاضرات الأدباء ومجمع البلاغة، كما أنه لا يذكرها في هذين المصنفين. فهل كانت المصنفات الأدبية في أوائل عمره الأدبي وكانت مصنفاته الأخرى في الفكر والدين والأخلاق والسلوك بعد أن تقدمت به السن؟ إنه افتراض قد يوصل إليه الاجتهاد والاستنتاج، في غياب النصوص الصريحة الدالة.

كشف من المرأة المحطة:

لقد كان الرجل، إذن، قليل التحدث عن نفسه وعن خصوصياته، فلم يذكر لنا اسم أستاذ أخذ عنه أو فقيه أو اخباري أو لغوي جلس إليه، ولقد ترددت في آثاره عبارة

«أُمليت» لكنه لم يضيف عليها ليفيد باسم المملّى عليه، ولو مرة واحدة، كما أنه لم يحدثنا عن مُترباه وعن طفولته وعن نشأته، لم يذكر لصوقه بأيّ من أصفهان التي يحمل اسمها ولا من بغداد التي من المحتمّ أن يكون قد أَلَمَّ بها أو عاش فيها. فغاية ما استطعنا أن نجعله من كِسَف هذه المرأة المحطمة، إلى جانب هذا التواضع في الحديث عن النفس إلى درجة الندرة، أنه كان يشارك في ندوات القوم ومجالسهم العلمية برأي فيه التضلع في اللغة والتمكّن من الثقافة الدينية، بل أنّ الدين كان لديه مسلكاً وعقيدة وعبادة، وأنّه قد أَلَمَّتْ به أزمة، لم ندر ما أبعادها وما دواعيها، حملته على الانعزال عن الناس برهة من الزمان، لم ندر ما طولها، وأنه قد اشتعل رأسه شيباً، وهو يضيف بعض أعماله. أما أكثر من ذلك فلم نقف منه على أثر.

المزيد من البحث:

ومع هذا كله فإن الباحث لا يستسلم لليأس مثل الطبيب الذي لا يسلم للموت. فلا بد من تقليب ما أثر عنه من الغلاف إلى الغلاف. لعلنا نظفر بما يقرّنا من صورته أو عصره.

فعلى الورقة الأولى من مخطوطة «الذريعة إلى مكارم الشريعة»^(٦٢) وجدت ترجمة للراغب نسخها مجهول عن ترجمة البيهقي التي عرضنا لها في الإشارتين إلى تاريخ وفاته، فهو يذكرها في نهاية الإشارة بقوله «من تذكرة الحكماء» ولعله يريد من «تاريخ حكماء الإسلام» ثم يضيف: «وكان حسن الخلق والخلق جداً، وكان يستعبد الناس حسن محاورته بهم» وهو حديث عام لا يحصل شيئاً محدداً، ويختم إشارته بقوله: «مات بأصبهان وهو ابن ست وستين سنة، ودفن بها، رحمه الله». وهي عبارة نافعة لو ارتبطت بذكر البداية الزمنية أو النهاية التي تنبئ

(٦٢) رقم ٧٦٨، بمكتبة إبراهيم باشا بالسليمانية، إستانبول.

بتاريخ الوفاة، أو تقرينا من عصر صاحبنا تقريباً ما.

وعلى الصفحة الأولى من المخطوطة نفسها عثرت على فقرة كتبت بخط التعليق (الفارسي) الدقيق، غير أنها لم تضاف إلى ما نعرف شيئاً ذا بال، فقد عدت ثلاثة من آثاره وذكرت أن العلماء قد تلقوها بالقبول، ثم أخذت تردد مزايا مدينة أصفهان التي هو واحد من مشاهريها.

وعلى الورقة الأولى من مخطوطة أخرى للراغب هي «حل متشابهات القرآن»^(٦٣) نجد حديثاً لا يربطنا به إلا أنه مثبت على مخطوطه منسوبة حقاً لصاحبنا الراغب. فقد ذكر هنا القارئ المتسرع اسماً لم نعرفه من أسماء الراغب هو «أبو محمد بن الحسين الأصفهاني». ولم تعرض كتب التراجم لأصفهاني يحمل هذا الاسم، وفي هذا الحديث أنه تصدر للوعظ والتدريس والتأليف، وله مصنفات جليلة (لم يذكرها) ومناظرات عجيبة. وفيه أيضاً أن له رحلة للهند وغيره (كذا) «ولما رجع إلى نيسابور مات في الطريق سنة ست وأربعمائة، فنقل لنيسابور ودفن بها».

إن هذه الآثار لا تستمد القوة من نفسها بل من قربها من أخبار أخرى موثقة قد تنهياً، فليست، وحدها، مطمئنة ولا معروفة، وليست معلنة عن أصحابها، ولا تحمل المعلومات الكافية عن الراغب. إنها، إذن، قد تقيد في الترجيح على الرغم مما يكتنفها من الشك، ونحن نستمع بإرهاق لأشد الأصوات خفوتاً حينما تعزّ علينا الأصوات العالية الصريحة، وقد قال الشاعر:

من جزّ كلباً فمحتاج إلى وبر ولاقطُ الحبّ محتاج إلى البعر

(٦٣) رقم ١٨٠، بمكتبة راغب باشا بإستانبول.

ما بين السطور:

ونبحث، من بعد آثاره، فيما بين سطور آثاره، نستنتجها ولا بد أنها ناطقة،
فلعلها لا تكون صمّاً خوالد ما يبين كلامها «كأطلال لبيد».

فمن هم الأعلام الذين ذكرهم الراغب في هذه الآثار؟

ومن هم الأدباء الذين أجرى أشعارهم ومنثوراتهم في تضاعيفها؟

ومن هم رجال السياسة الذين عرض لذكرهم في حياته؟ هل ذكر بعضهم
باحترام وتهيب؟ وذكر آخرين بغير تلك المشاعر؟

إن آخر وفاة يذكرها الراغب في آثاره لا ترقى، في حدود ما علمت من
مطبوعاته ومخطوطاته^(٦٤)، إلى أكثر من عام ٤٢١هـ، وبصورة أدق كان هذا العام
هو تاريخ وفاة أكثر الرجال تأخراً في حياته، وهذا العام هو عام وفاة أبي علي
الخازن أحمد بن يعقوب بن مسكويه^(٦٥). بل أن أكثر من ذكرهم من أعلام السياسة
والأدب هم من قضى في أخريات القرن الرابع. لقد ذكر أبا الفضل بن العميد وزير
بني أمية في مخطوطة مجمع البلاغة خمس مرات وفي محاضرات الأدباء مثل
ذلك تقريباً، وعدوا له فيهما أقوالاً، وذكر صاحب بن عباد الوزير الثاني لبني بويه
في المخطوطة المذكورة سبع عشرة مرة وفي محاضرات الأدباء أكثر من ذلك،
وأورد بعض أقواله وأشعاره وضربها أمثلة على موضوعات كان يطرقها. ومن
المعروف أن الأول قد توفي عام ٣٦٠هـ^(٦٦). وأما الآخر فعام ٣٨٥هـ^(٦٧).

(٦٤) لقد اطلعت، حتى الآن على آثاره المطبوعة والمخطوطة التي ذكرها بروكلمان ما عدا
مخطوطتي كتاب الأخلاق، (برلين ٥٣٩٢)، وأدب الشطرنج، (قازان 4 ISL. XVII)، فأنا
ماض في البحث عنهما بمشيئة الله.

(٦٥) الأعلام ٢٠٤/١، ط ٣.

(٦٦) وفيات الأعيان ١٠٩/٥، وتجارب الأمم، ابن مسكويه ٣٠١.

ولقد ذكر معهما حكام بني بويه كعضد الدولة (٣٧٢هـ)^(٦٨) وعز الدولة (٣٦٧هـ)^(٦٩). غير أنّه لا يذكر، ولو خبراً واحداً عن الذين أدال لهم من بني بويه فخلفهم على الحكم وأعني السلاجقة الأتراك الذين يبدأ تاريخ حكمهم عام ٤٤٧هـ. فهل تراه يعيش إلى عام ٥٠٢هـ، الذي ذكر أنه توفي فيه، نيفاً وخمسين سنة في ظل حكام لا يذكر عنهم شيئاً؟

ثم ما بال أبي القاسم الراغب يعجب بأبي الطيب المتنبي، أيّما إعجاب، فيذكره حيناً باسمه أحمد بن الحسين، وحيناً بكنيته أبي الطيب، وحيناً بلقبه المتنبي، ويستشهد بقدر كبير من شعره لكنه لا يتمثل ولو بكلمة واحدة من آثار أبي العلاء المعري وقد تعددت في شعر ونثر وموضوعات وفكر وأدب؟ ألا يعني هذا شيئاً لنا؟ وقد توفي أبو الطيب عام ٣٥٤ (٧٠) وقضى أبو العلاء عام ٤٤٩هـ؟^(٧١) وهل يعقل أن موقف الراغب من أدب أبي العلاء وفكره قد منعه من ذلك؟ إنني لم أقف على شيء يؤيد ذلك فيما اطلعت عليه من آثاره.

ثم إنّ في آثاره ما يشهد بأنّه عاصر بعض مراحل الصراع الفكري بين علماء الكلام وسائر الفرق الإسلامية كالأشعرية والشيعة^(٧٢)، وقد استعرت هذه الخصومات في القرن الرابع وخمّدت في القرن الخامس^(٧٣).

(٦٧) ذيل تجارب الأمم، أبو شجاع ظهير الدين الروذرواري، ص ٢٦١، أحداث عام، ٣٨٥، الأعلام للزركلي ٣/٣، ط ٣.

(٦٨) ذيل تجارب الأمم، الروذرواري، ص ٣٩، أحداث عام، ٣٧٢.

(٦٩) المصدر السابق، ص ٣٨١، أحداث عام، ٣٦٧.

(٧٠) وفيات الأعيان ٣٦/١.

(٧١) معجم الأدباء ١٨١/١.

(٧٢) أحمد أمين، ظهر الإسلام، ط ٤، ٥١/٢.

(٧٣) المرجع السابق والصفحة.

هل نحصل من هذا كله شيئاً؟

نحسب أننا بإزاء رجل كان يعيش في عصر الصاحب بن عباد المتوفى عام ٣٨٥هـ.

أبو العباس الضبي، خليفة الصاحب بن عباد:

ألا تقرنا آثاره، بعد ذلك، إلى نفسه أكثر من ذلك؟ لعلنا نظفر بشيء من ذلك إذا مضينا في البحث والتنقيب في هذه الآثار.

إنه حينما يورد بيت الشعر التالي في مخطوطة «مجمع البلاغة»^(٧٤) التي عني الباحث بتحقيقها:

لا تحسبن دموعي البيض غير دمي وإنما نفسي الحامي يصعده

ينسبه في نسخة معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية التي رمز لها بحرف (ع) «لأستاذ الرئيس أحمد بن إبراهيم»، بينما ينسبه في نسخة مكتبة جامع السلطان أحمد الثالث بإستانبول المرموز لها بحرف (س) للصاحب بن عباد.

وهنا نلتقط اسم «الأستاذ الرئيس أحمد بن إبراهيم» لنبحث عنه فلعلّه رأس خيط يوصل إلى يقين. إنَّ الراغب لم يذكره في المخطوطة المذكورة مرة أخرى، بل إنّه لم يرد في أعمال الراغب إلّا في موقف آخر فقط، هو محاضرات الأدباء^(٧٥).

ونبحث عن صاحب الاسم لنجد أن ياقوت يخبرنا أنه «أبو العباس الملقب بالكافي الأوحّد، الوزير بعد الصاحب أبي القاسم ابن عباد، لفخر الدولة أبي

(٧٤) ص ٤٩٠.

(٧٥) الجزء الرابع، الصفحة ٦٠٩، دار مكتبة الحياة - بيروت.

الحسن علي بن ركن الدولة بن بويه، مات في صفر ٣٩٩هـ^(٧٦) ونجد أنّ «ذيل تجارب الأمم»، الذي أتم التأريخ بعد كتاب ابن مسكويه المشهور (تجارب الأمم) يخبرنا أنّه «لدى وفاة فخر الدولة وتولي ابنه مجد الدولة الحكم، والوزيران يومئذ هما أبو العباس الضبي المتلقب بالكافي الأوحّد وأبو علي بن حمولة المتلقب بأوحد الكفاة»^(٧٧). وقد ذكره أيضاً الصاحب في بعض رسائله ذكر من يرضى عنه ومن يعده لجلائل الأمور في مستقبل الأيام^(٧٨)، كما ذكره صاحب «وفيات الأعيان»^(٧٩) والثعالبي في «اليتيمة»^(٨٠) والذهبي في تاريخ الإسلام^(٨١) وعباس المكي في «نزهة الجليس»^(٨٢). أما المافروخي في كتابه «محاسن أصفهان» فإنه يورد نصاً صريحاً يربط ما بين الصاحب وخليفته الضبي هذا ثم يذكره باسمه ولقبه بشكل صريح، يقول: «وقع الصاحب كافي الكفاة إلى الأستاذ الرئيس أبي العباس الضبي توقيعاً بقضاء حاجته»^(٨٣).

وقد يقرب هذا الوزير من صاحبنا الراغب أنّه ذكر أنّه رفع إليه ثلاثة من كتبه ورسائله، لم يذكره باسمه ولكن بلقبه «الأستاذ»:

ففي مقدمة كتاب تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين يقول الراغب:

(٧٦) معجم الأدباء، دار المشرق، بيروت ١٠٥/٢.

(٧٧) ظهير الدين الروذاواري، ذيل تجارب الأمم، شركة التقدم الصناعية، ١٩١٦، أحداث السنوات، ٣٦٩-٣٨٩.

(٧٨) رسائل الصاحب ابن عباد، تصحيح عبدالوهاب عزام، وشوقي ضيف، دار الفكر العربي، ١٣٦٦، ص ٩٤.

(٧٩) ٩١/٢.

(٨٠) ١٢٤-١١٨/١٠.

(٨١) أحداث عام، ٣٨٨.

(٨٢) ٢٨٥/٢، وعدّه من الذين تردّدوا على بلاط الصاحب في أصفهان والريّ وأرجان.

(٨٣) محاسن أصفهان، المافروخي، طبع إيران، ١٣٥٢هـ، ص ٩٨.

«وقد عملت ذلك للأستاذ الكريم أيده الله»^(٨٤).

وفي إحدى رسائله المخطوطة^(٨٥) يقول: «ولما رأيت الأستاذ حَرَسَ به الله...» وفي أخرى يقول^(٨٦): «قصدي في هذه الرسالة أن أبين للأستاذ أدام الله تأييده...» وفي آخرها يقول: «... وقى الله الأستاذ وأطال بقاءه».

وهو في كتابين منشورين يكنى عنه بـ(سيدنا) وهو مَن نرجح أنه هو أيضاً، ففي مقدمة كتاب المحاضرات^(٨٧) يقول: «وبعد فإن سيدنا، عمر الله مكانه مراتب الكرم... أحب أن أختار له...».

وفي مقدمة المخطوطة المحققة «مجمع البلاغة» يقول: «... ولما رأيتك - حرس الله جمال الفضل بك - مائلاً إلى الألفاظ المونقة... تتبعت نواذر الأشعار»^(٨٨).

ولقد عرف هذا اللقب لغير هذا الوزير أيضاً، فقد كان يلقب به أبو الفضل ابن العميد، كبير وزراء بني بويه. غير أن الراغب لم ينسب هذا اللقب لابن العميد حينما يذكره، وكثيراً ما ذكره، في «محاضرات الأدباء»، وفي «مجمع البلاغة»، بل إنه قد نسب له هذا الوزير، أحمد بن إبراهيم، أبو العباس الضبي فقط، كما رأينا.

(٨٤) طبعة حلب، ص ٢.

(٨٥) هي رسالة في أن «فضيلة الإنسان بالعلوم»، مخطوط ٣٦٥٤/١، مكتبة أسعد أفندي، بالسليمانية.

(٨٦) هي رسالة في «مراتب العلوم»، مخطوطة ٣٦٥٤/٤، مكتبة أسعد أفندي، بالسليمانية.

(٨٧) دار مكتبة الحياة ببيروت.

(٨٨) المخطوطة - مجمع البلاغة - المقدمة.

كشف عصر الراغب:

من هنا يرجح الباحث أن أبا القاسم الراغب الأصفهاني قد عاصر أولاً صاحب بن عباد، وزير بني بويه، المتوفى عام ٣٨٥ (وكان قد عاصر قبله ابن العميد) ثم عاصر بعد صاحب الوزير الذي جاء خليفة له وهو الوزير أبو العباس الضبي، أحمد بن إبراهيم، المتوفى عام ٣٩٩. كما يرجح الباحث أن الراغب كان يقدم بعض مصنفاته هدايا لهذا الوزير الذي عرف بالأستاذ الرئيس.

عودة لمناقشة تاريخ وفاة الراغب:

وإذ قد وصل بنا البحث إلى أن الراغب الأصفهاني قد كان يعايش صاحب ابن عباد وخليفته أبا العباس الضبي فقد أصبح من الضروري البحث عن الرأي المرجح في تاريخ وفاته الذي ذكرنا، في بداية البحث، أن المؤرخين، على قلتهم، قد انتهوا فيه إلى خلط كبير.

الفئة الأولى:

وقد كان هؤلاء المؤرخون متميزين في فئتين، في هذا الرأي. أما الأولى فتجعل وفاة الراغب في بداية القرن السادس ٥٠٢ هـ أو في النصف الثاني منه ٥٦٥ هـ. وأما الثانية فتجعله في بداية القرن الخامس. ولدى مناقشة أقوال الفئة الأولى نجد أنها تمثل أقوال مؤرخي الشيعة وأقوال بروكلمان ومن شايعة.

فلقد ذكر صاحب "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" أكثر من مرة^(٨٩) أن

(٨٩) المجلد ١٠، ص ٢٨، والمجلد ١، ص ٣٧٤.

الراغب قد توفي عام ٥٦٥هـ، ونقل ذلك عن كتاب "أخبار البشر"، وهو من الكتب المتقدمة في طبقاتهم. ومن الغريب أنه يناقض نفسه فيسوق أرقاماً أخرى، فهو يذكر مرة أن وفاة الراغب كانت في ٥٠٢هـ^(٩٠) ومرة في ٣٢٢^(٩١). وكفى بهذا التناقض دليلاً على التهافت في هذه التواريخ. ومن المؤسف أن نقل عنه في ذكر وفاة الراغب (في ٥٦٥هـ) بعض مؤرخي الشيعة مثل عباس القمي في "الكنى والألقاب"^(٩٢)، والخوانساري في "روضة الجنات"^(٩٣).

غير أن باحثاً منهم قد ناقش صحة هذا التاريخ ليثبت أن الوفاة قد تمت عام ٥٠٢. قال: "وفي الروضات (ص ٢٥٦) عن تاريخ أخبار البشر أنه توفي في عام ٥٦٥ وهو غلط، فإنه قال بعد ذلك إن وفاته قبل وفاة جابر الله الزمخشري، مع أن الزمخشري توفي عام ٥٣٨، ويأتي عن كشف الظنون أن الغزالي كان يستصحب الذريعة (إلى مكارم الشريعة) للمترجم (يعني للراغب) والغزالي توفي ٥٠٥هـ"^(٩٤).

ولو أن هذا الباحث واصل تساؤله عن سائر تواريخ وفاة الراغب، إذن لأدرك أن المتوفى عام ٥٠٥هـ قد يصعب، وإن لم يكن يستحيل، أن يعني بمصنف لمعاصر له توفي قبله بثلاث سنوات فقط، فكيف إذا كان هذا المعنتي هو حجة الإسلام أبا حامد الغزالي؟!

ولكن من أين جاءنا رقم ٥٠٢هـ هذا؟ لم أجد مؤرخاً من الأقدمين ذكره أو

(٩٠) ١٢٨/٢٠.

(٩١) ٩٥/٨.

(٩٢) ٢٤٠/٢، مطبعة العرفان - صيدا.

(٩٣) ١٩٧/٣، طهران.

(٩٤) محسن الأمين العاملي، أعيان الشيعة ٢٧/٢٢٠، مطبعة الإيتقان.

ذكر ما يوحي به. وأغلب الظن أنه جاء من المستشرق الألماني كارل بروكلمان، في تأريخه للأدب العربي^(٩٥). فجميع الذين قالوا به في العصر الحديث^(٩٦)، ولا أستثني مؤرخي الشيعة الذين ذكروا قبل قليل، فهم عيال عليه، فقد نقلوا عنه نقلاً مباشراً "أميناً". ومع ذلك فلم يشيروا إلى مرجعهم، إلا فهرسة الخزانة التيمورية الخديوية، فقد ذكرت "المتوفى ٥٠٣، كما حققه بعض المستشرقين"^(٩٧).

الفئة الثانية:

هذه، إذن، هي أقوال الفئة الأولى في التأريخ لوفاة الراغب الأصفهاني، وتكاد تتركز في عام ٥٠٢، وقليل منها الذي ذكر عام ٥٦٥هـ.

أما الفئة الثانية ففي مقدمتها يذكر جلال الدين السيوطي (٩١١) الذي يفصل بينه وبين عصر الراغب قرابة خمسة قرون. فقد كان أول من ذكر أن الراغب "كان في أوائل المائة الخامسة"^(٩٨)، ولعله يريد بذلك أنه قد عاش إلى ما بعد نهاية المائة الرابعة للهجرة. ولعله يفهم منه، كذلك أنه لم يعيش من القرن الخامس أكثر من عقد منه أو عقدين على الأكثر. حيث يدركها وهو شيخ طاعن في السن^(٩٨).

ولنذكر هذه الصيغة التي هي أقرب إلى روح التحري العلمي الدقيق "أوائل المائة الخامسة" ولم يجزم بتاريخ محدد. ولا ننسى أيضاً، أن السيوطي قد أشار إلى أن فخر الدين الرازي قد أظهر إعجابه بالراغب، وإعجاب الآخرين

(٩٥) المجلد الثالث، المبسط، ص ٥٠٥.

(٩٦) مثل دائرة المعارف الإسلامية، والقاموس الإسلامي، ومعجم المطبوعات العربية، وجورجي زيدان، والموسوعة العربية الموسعة، وخير الدين الزركلي، وعمر رضا كحالة.

(٩٧) ١٠٨/٣.

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الخانجي، ط ١، ١٣٢٦، ص ٣٩٦.

بكتبه.

ولقد تبع السيوطي، في ذكر عصر الراغب، حاجي خليفة في "كشف الظنون"، ومع أنه سكت عن ذلك، وهو يذكر بعض مصنفات الراغب^(٩٩)، فإنه ذكر في بعض آخر أنه "في رأس المائة الخامسة"^(١٠٠) ونص على من نقل عنه في بعض ثالث "وسماه السيوطي في طبقات النحاة المفضل بن محمد وقال: وكان في أوائل المائة الخامسة"^(١٠١).

إن الراغب يدين، فيما يبدو، لجلال الدين السيوطي بقدر ليس بالقليل من الذكر والتأصيل. وقد مر بنا أن ظهير الدين البيهقي، أول من ذكره، لم يتعرض لذكر وفاته.

ولبعض الباحثين المحدثين شيء من مثل هذا الفضل في تحقيق تاريخ وفاة الراغب.

يذكر الأستاذ محمد كرد علي، في تحقيقه لكتاب "تاريخ حكماء الإسلام"^(١٠٢) للبيهقي السالف الذكر، يذكر في أحد هوامشه أن الراغب قد توفي عام ٤٠٢ في أصح الروايات أي أوائل المائة الخامسة. وبقدر ما في العبارة من تحقيق قد لا يعدو الصواب كانت تنقصها الإشارة إلى المرجع، وإن كان النص يشي بأنه مستقى من السيوطي.

(٩٨) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، الخانجي، ط ١، ١٣٢٦، ص ٣٩٦.

(٩٩) المجلد الثاني، ص ٣٨٩.

(١٠٠) ٣٠٦/١، ٣١٧/١.

(١٠١) ٤٨٨/٢.

(١٠٢) مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٦، ص ١١٢، ١١٣.

ويذكر الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، في تحقيقه لكتاب "البرهان في علوم القرآن" للإمام بدر الدين الزركشي في بعض هوامشه "أنه، أي الراغب، توفي عام ٣٩٦هـ" (كذا). ويضيف "وانظر بغية الوعاة" ٣٨٦ (١٠٣) ويريد برقم ٣٨٦ رقم الصفحة من الطبعة التي استقى منها "بغية الوعاة". ولا أدري من أين استقى هذا المحقق الفاضل هذا التاريخ ٣٩٦؟ وصاحب "بغية الوعاة" الذي يحيلنا عليه هو القائل بأن الراغب قد عاش إلى أوائل المائة الخامسة!!!.

ومع ذلك فإن قرب هذا التاريخ من قول السيوطي يُذكر بفضل هذا الباحث، كما يذكر بفضل سابقه.

ترجيح رأي الفئة الثانية، في أوائل المائة الخامسة:

ذلك أن الباحث يرى أن أقوال هذه الفئة هي المرجحة في قريها من الصواب، من خلال ما رأينا من تهافت آراء الفئة الأولى من الداخل، أولاً، ومن خلال التقاء آراء الفئة الثانية، التي هي أكثر تحريماً للدقة والموضوعية، مع ما توصلنا إليه في كشف عصر صاحب، قبل قليل، من معاصرته للصاحب بن عباد وخليفة صاحب الوزير ابن العباس الضبي المتوفى عام ٣٩٩هـ.

الخطأ في تاريخ وفاة الراغب – قرن من الزمان!!!

ومن هذا التحقيق يتبين لنا حجم الخطأ الكبير الذي يقع فيه كل من قال ويقول بأن أبا القاسم الحسين بن مفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني قد توفي

عام ٥٠٢ هجرية. فبدلاً من أن يعدّ في كُتّاب القرن الخامس الهجري^(١٠٤) ومفكره فإنه ينبغي أن يكون من أشهر من يحسب من أدباء القرن الرابع ومفكره، ذلك العصر الذي شهد الحضارة العربية الإسلامية في أزهى عصورها.

وبتحقيق هذا التاريخ نكون قد التقينا، بعد التحري الدقيق، مع ما خطّه القارئ المجهول، على إحدى مخطوطات الراغب في إستانبول، من أن الراغب قد توفي عام ٤٠٦ هجرية. وقلنا عن هذه الإشارة، لدى عرضها، إنها لا تحمل مقومات الثقة في المراجع ولكننا توصلنا، عن طريق آخر، أنها صحيحة وإن لم تأتِها الصحة من نفسها.

غُمر الراغب:

أما عن العمر الذي عاشه الراغب فإننا نقول إذا صح ما استنتجنا، ونرجو أن يكون كذلك، من أنه قد توفي في العقد الأول من المائة الخامسة للهجرة، وصح ما استنتجنا أيضاً من ترتيب مصنفاته في حياته ومن أنه قد بلغ من العمر عتياً، وصح ما خطّه قلم كاتب مجهول آخر على مخطوطة أخرى للراغب في إستانبول من أنه قد توفي عن ست وستين سنة، وهذا ما لم يقدّر عليه دليل بعد، إذا صح هذا كله فإن الراغب لا يبعد أن يكون من مواليد العقد الخامس أو الرابع من القرن الرابع الهجري. والله أعلم، مع هذا كله، بتاريخ ولادة الراغب وتاريخ وفاته.

أديب ومفكر ولغوي ومفسر ولكنه مظلوم:

وربّ سؤال ينهض في وجه هذا البحث الذي طال ليحاول تحقيق تاريخ

(١٠٤) كما عدّه الدكتور عمر فروج في كتابه تاريخ الأدب العربي - دار العلم للملايين، الجزء الثالث، بيروت، ١٩٧٢، ص ٢١٤.

وفاة: فيمَ كل هذا العناء؟

تتكشف الإجابة عن هذا السؤال إذا ما تذكرنا صمت كتب التراجم والطبقات، إلى حد ملموس، عن التعرض لصاحب مصنفات روي أن حجة الإسلام، الغزالي، كان يعجب بها ويستحسنها لنفسها، وإذا ما تذكرنا أن أغلب أصحاب المعاجم اللغوية وتفسير القرآن الكريم التي عاش أصحابها بعد عصر الراغب قد أفادوا جميعاً، تقريباً من كتابه الفذ "معجم مفردات القرآن"، وإذا ما أضفنا، إلى ذلك، أن الراغب قد ظلم في مصنفات معاصريه وفي الأبحاث الجلية التي قامت حول رجال التراث ومصنفاتهم في العصر الحديث.

فقد ذكر الراغب ابن مسكويه ٤٢١هـ^(١٠٥) ولكن ابن مسكويه، في أغلب الروايات لم يجره على لسانه. ولم يرد في مصنفات أبي حيان التوحيدي ٤٠٠هـ^(١٠٦)، في حدود ما أعلم، وقد حفلت كتب التوحيدي بكثير مما شارك فيه الراغب من أفكار دينية وشرعية وأخلاق وسلوك. ولم يذكره معاصره أبو منصور الثعالبي وقد شغل بالتأريخ لأدب القرن الرابع الهجري كله، وقد توفي، على الأرجح بعد الراغب ٤٢٩ أو ٤٣٠هـ^(١٠٧). كما أن الباحثين في حياة أبي الحسن البصري الماوردي وفي "أحكامه السلطانية" وفي أحاديثه في الأخلاق وفي "أدب الدنيا والدين" لم يذكروا أن هذا القاضي المشهور بعدله قد مرّ على خاطره اسم صاحب الذريعة أو تفصيل النشأتين وهما في الأخلاق والسلوك ما هما.

كما أن ما قام حول أدب العصر العباسي وفكره وتراثه في العصر

(١٠٥) مجمع البلاغة، ورقة ٣٤٤.

(١٠٦) الأعلام ١٤٤/٥، وبغية الوعاة، ٣٤٨.

(١٠٧) مقدمة كتابه «التمثيل والمحاضرة» تحقيق عبدالفتاح الحلو، ١٩٦١، طبعة الحلبي.

الحديث^(١٠٨)، لم يكذب يتعرض للراغب، في قليل أو كثير.

سر التجاهل:

إن هذا كله يحملنا على التساؤل عن أسباب نُدرة الترجمة، في القديم وفي الحديث، لفكر الراغب وأدبه وأثره. وهو تساؤل يبرز أمام كل باحث يتعرض للراغب ويشهد المفارقة الشاسعة بين فضل الرجل وبين تجاهل الناس إياه. فقد تعرض له الباحث الوحيد فيما أعلم، في العصر الحديث، فتساءل، في درس الراغب، عن هذه الأسباب.

فقد وجد الأستاذ محمد كرد علي أن عدم اتصال الراغب بقضاء أو عمل للدولة أو مناداة أمير أو وزير هو سبب عدم ذكره، في طول التاريخ الأدبي وعرضه. ويضيف إلى هذه الأسباب المحتملة سكنى الكاتب في مدينة غير مشهورة من مدن بلاد فارس، غير أصفهان، التي إليها ينسب، وغير نيسابور، التي قيل إنه بها قد توفي وفيها دفن، فقد أخرجنا رجالاً لهم خطرهم في شتى الفنون.

ويحدث باحث آخر^(١١٠) أن السبب هو تنقل الراغب بين بغداد وأصفهان، ولا أحسب أن أديباً في عصر الازدهار الفكري والأدبي الذي عاشه الراغب، قد

(١٠٨) مثل مصنفات ظهر الإسلام للأستاذ أحمد أمين، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع، لادم ميتز، ولا أستثني النثر الفني في القرن الرابع، للدكتور زكي مبارك، فإشارة يتيمة للراغب لم تكن كافية على الإطلاق، ويجري مجرى هذه المصنفات الأبحاث الجامعية المقررة على طلبة الجامعات.

(١١٠) هو الدكتور حسين محظوظ، أستاذ الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة بغداد، في حديث شخصي مع الباحث أثناء زيارته لبغداد بتاريخ ١٠/١٠/١٩٧٥.

صفق على نفسه الباب، ولم ينتقل في أرجاء العراقيين.

وربما كان ما أصاب الراغب من إهمال سببه فقدانه لعطف الفرق الإسلامية التي كانت أحزاباً تقوم على أساس سياسي كالإمامة أو عقائدي كصفات الله تعالى وأفعاله. وقد فقد عطف هذه الفرق لأنه لم يعلن ولاءه لإحداها في مواقفه وفي مصنفاته، بل إنه قد انتقد كلاً من المعتزلة والمتشيعية والمشبهة والخوارج ولم يقبل منها إلا رأي أهل السنة والجماعة^(١١١).

تشيعه:

ولا أستبعد أن يكون أحد أسباب تجاهله، في القديم والحديث، هو اتهامه بالتشيع، ولعل هذا الاتهام قد نفذ إليه من احتفاله البيّن بأقوال الخليفة الرابع، كرم الله وجهه، فهو يكثر من التمثيل بأقواله وأفعاله ويردّد بين الحين والحين أخبار أهل عثرته، وأكثر ما يكون هذا واضحاً في مصنفاته الأدبية كمحاضرات الأدباء ومخطوطة "مجمع البلاغة". ومن هنا تجد أن كتب تراجم الشيعة^(١١٢) قد أفردت له صفحاتها بينما لم يترجم له السبكي في طبقات الشافعية مثلاً.

غير أن أحد مترجمي الشيعة يظن لما فعل من خطأ ويقرر "أنه من الشافعية كما استفيد لنا من فقه محاضراته"^(١١٣)، وهنا نراه يلتقي مع ما يقرره فخر

(١١١) مخطوطة رسالة في الاعتقاد، للراغب، رقم ٣٨٢، مكتبة سعيد باشا، السليمانية، إستانبول، الورقة الثانية.

(١١٢) مثل الذريعة إلى تصانيف الشيعة ١٢٨/٢٠، وأعيان الشيعة ٢٢٠/٢٧، وسفينة البحار، والكنى والألقاب ٢٤٠/٢، وروضات الجنات ١٩٧/٣.

(١١٣) الخوانساري في روضات الجنات، طبع إيران ١٩٧/٣.

الدين الرازي من "أبا القاسم الراغب من أئمة السنة"^(١١٤).

فكيف نوفق بين احتفال الرجل بأخبار علي بن أبي طالب وأفعاله وبين قول بعض العلماء من أنه سني؟ إنه ليبدو للباحث أن الراغب لم يتجاوز حبه لعلي، كرم الله وجهه، ما يرضي به نداء الوجدان الذي تربي عليه ونشأ فيه، ذلك لأنه في مواقف الفكر والعقيدة صريح صراحة لا تترك مجالاً لنقاش، فيُخطئ سائر الفرق الإسلامية ويعلن ولاءه الصريح لأهل السنة والجماعة، فهو يقول: "الفرق المبتدعة الذين هم كالأصول للفرق الاثنتين والسبعين"^(١١٥) سبعة: المشبهة ونفاة الصفات والقدرية والمرجئة والخوارج والمخلوقية والمنتشعة. فالمشبهة^(١١٦) ضلّت في ذات الله، ونفاة الصفات^(١١٧) ضلّت في صفات الله، والقدرية^(١١٨) في أفعاله، والخوارج^(١١٩) في الوعيد، والمرجئة^(١٢٠) في الإيمان، والمخلوقية^(١٢١) في القرآن، والمنتشعة^(١٢٢) في الإمامة ... والفرق الناجية هم أهل السنة والجماعة الذين اقتدوا

(١١٤) في ترجمة السيوطي للراغب، بغية الوعاة، ٣٩٦.

(١١٥) يشير إلى الحديث الشريف الذي أورده الشهرستاني دون تخريج (الملل والنحل، ٨/١) «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية فيها واحدة...».

(١١٦) هم جماعة من الشيعة الغالية قالوا إن معبودهم صورة ذات أعضاء وأعضاء، (الشهرستاني، الملل والنحل ٩/٢).

(١١٧) يريد المعتزلة لأنهم نفوا أن يكون لله صفات أزلية قديمة (د. علي النشار، التفكير الفلسفي في الإسلام ٤٢٠/١).

(١١٨) يريد بهم المعتزلة الذين قالوا إن أفعال العباد ليست من الله.

(١١٩) لأنهم قالوا إن مرتكب الكبيرة كافر مشرك (النشار ١٨٦/١).

(١٢٠) لقولهم لا تضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة (الشهرستاني، ١٨٦/١).

(١٢١) يريد من قال بخلق القرآن منهم - من المعتزلة.

(١٢٢) وخلاصة رأي الشيعة في الإمامة «أن الله لا يخلي الأرض حجة على العباد من نبي أو وصي ظاهر مشهور أو غائب مستور» و«أن النبي قد أوصى لعلي، وأوصى علي لابنه الحسن، وأوصى الحسن لأخيه الحسين، وهكذا إلى

بالصحابة" (١٢٣).

وليس المقام مقام توسع في موقف الراغب من الفرق الإسلامية وقناعته برأي السنة والجماعة، ولكنني أكتفي بهذا القدر منبهاً إلى صيغة المتشعبة وما فيها من دلالة لغوية ومن فرق بينها وبين الشيعة، وإلى أن لقب الإمام الذي يحمله لا يطلق إلا على علماء السنة. وإلى أن الكثير من الناس في مصر وفي غيرها من البلدان العربية والإسلامية ليتعلقون بحب آل البيت دون أن يقولوا بقولهم في الإمامة وفي الوصاية.

حتى إذا ما عدنا لنرى أثر هذه التهمة على أبي القاسم الراغب وجدنا أنها كانت ذات أثر كبير في إغفال المترجمين لترجمته، فقد حُسِبَ على الشيعة وأنكره مصنفو الطبقات والتراجم العامة لهذا السبب، وتبين أنه ليس من الشيعة، فضاء أثره بين هؤلاء وأولئك، وانتهى إلى ما نرى من نكران وخمول ذكر.

وقد يرد في الذهن، من أسباب خمول ذكره، ما فيه من عفة وترفع أو انعزال عن دائرة الضوء، كما نقول في هذه الأيام، وعن بلاطات الحكام. وأياً ما كان السبب أو كانت الأسباب فإننا نظل بإزاء كاتب مفكر وفقه ومفسر ولغوي قد حاق به ظلم كبير في كتب التراجم القديمة وفي أبحاث معاصريه ومعاصرنا، ورجاؤنا أن يكون هذا البحث محاولة أولى في إزاحة ركام النسيان والتجاهل عن أثره وعن آثاره.

الإمام الثاني عشر المنتظر...» (الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، أصل الشيعة وأصولها، بغداد، ط ٣، ١٩٤٤، ص ٨١).
(١٢٣) مخطوطة رسالة في الاعتقاد، للراغب، رقم ٣٨٢، بمكتبة سعيد علي باشا، السليمانية، إستانبول.